الفصل الرابع
من أسرار حرف الإلصاق

حقيقة الباء ومجازها

الباء هي كذلك من الحروف التي اتَّسع فيها العرب اتساعًا جعل بعض النُّحاة يصلون بمعانيها إلى أربعة عشر معنى ، ممَّا هو دليل على كثرة تصرُّفها وقدرتها على الوفاء بأغراض المتكلم وأحوال المخاطبين ، سواء أكانت هذه المعاني تؤدَّى بها على سبيل الحقيقة ، أم التجوُّز ، أو النيابة عن أخواتها من حروف الجر على اختلاف مذاهب العلماء ، وهو ما لا يستوقفنا إلا بالقَدْر الذي يكشف عن أسرار هذا الحرف ، ويستجلي دلالاته التي يشيعها في نظم القرآن الكريم ، بما يتمشى مع منهج هذه الدراسة وأهدافها.

وقبل الغوص في أعماق الشواهد القرآنية ، يحسن بنا أنْ نقرر أنَّ المعنى الذي تدور حوله الباء ، ولا يكاد يفارقها ، هو الإلصاق والاختلاط ، كما أكَّده إمام النُّحاة «سيبويه» ، سواء تجلَّت عنه في ثوب من الحقيقة أو توارى في دِثار من التجوُّز ، وهو ما نحاول التنصت إليه، ونكشف عن أسراره التي يخفيها في أطوائه.

يقول ابن هشام ، وهو ممَّن استحسن قول الكوفيين بتناوب حروف الجر: «الباء المفردة حرف لأربعة عشر معنى ، أولها الإلصاق ، قيل: وهو معنى لا يفارقها ، فلهذا اقتصر عليه سيبويه ، ثم الإلصاق حقيقي كـ(أمسكت بزيد) ، إذا قبضت على شيء من جسمه ، أو على ما يحبسه من يد أو ثوب ونحوه ، ولو قلت: (أمسكته) ، احتمل ذلك ، وأنْ تكون منعته من التصرُّف ، ومجازي نحو: (مررت بزيد) ، أي: ألصقت

مروري بمكان يقرب من زيد» [1].

هذا كلام دقيق لو انصرفت الهمم إلى تتبعه في النصوص التي لا تظهر فيها حقيقة الإلصاق ، واستيحائه فيما اشتبه بمعاني أخواته من الحروف ، لكان أمامنا ثروة هائلة من أسرار التجوز في الحروف ، بدلا من القول بتعدد معانيها ونيابتها عن غيرها.

وقد كانت للعز بن عبدالسلام محاولات طيِّبة في بيان التجوُّز في الحروف ، لولا أنَّ أكثر جهده استنفده في بيان نوع المجاز وعلاقاته ، وقليلاً ما ظهرت أسرار التجوُّز فيه. وهذا طرف من حديثه عن الباء: «قال سيبويه: هي للإلصاق ، والإلصاق أضرب ، أحدها حقيقي ، وهو إلصاق جرم بجرم ، كقولك: ألصقت القوس بالفراء ، والخشبة بالجدار. الثاني إلصاق المعنى بالجرم ، كقولك: لطفت بزيد ورأفت به ، كأنَّك ألصقت اللطف به والرأفة به لتعلقهما به ، وكقولهم: مررت بزيد ، لابد فيه من حذف تقديره: مررت بمكان زيد ، أو بمحل زيد ، وهو من مجاز التشبيه ، كأنَّك ألصقت المرور بالمكان. الثالث: إلصاق المعنى بالمعنى ، كقوله ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ ، أي: النفس مقتولة بقتل النفس ، والعين مفقوءة بفقو العين ، أتى بالباء ليكون المسبب ، وهو القصاص ، منسوبًا إلى الجناية نسبة السببية ، فأشبه لذلك الإلصاق الحقيقي ، وهو جارٍ في جميع الأسباب» [2].

فما قيل من معنى السببية في الباء أرجعه بذلك «العز» إلى الإلصاق المجازي ، وهو ما يمكن أنْ يقال في غيره من المعاني التي

---

(١) مغني اللبيب ١/ ٩٥.
(٢) الإشارة إلى الإيجاز ٢٥.

قيل إنَّ الباء تؤديها بعيدًا عن معنى الإلصاق ، ويبقى السؤال: ما الذي يوحي به الإلصاق في الآية الكريمة؟

أقول: إنَّ القرآن قصد إلى التخويف وشدة الزجر بغية منع الناس من الإقدام على القتل منذرًا بسرعة العقوبة ، وتعجيل القصاص قبل أنْ تجفَّ الدماء ، وكأنَّ نفس القاتل مرهونة مقيدة بنفس القتيل ، وإقدامه على قتل غريمه بمثابة إقدامه على قتل نفسه ، وهذا معنى إلصاق نفس القاتل بنفس مَنْ قتله ، ومثله القصاص في الجوارح ، حتى لا يقدم مَنْ تعزُّ عليه عينه على فقء عين ملتصقة بعينه التصاقًا يلحق بها نفس الأذى الذي يلحقه بعين أخيه.

وهذه آية أخرى قيل فيها إنَّ الباء للسببية أو الاستعانة ، وإذا تأمَّلنا وجدنا معنى الإلصاق فيها يلوح من بعيد ، مشيرًا إلى بلاغة النظم الحكيم ، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾(البقرة: ٥٠).

قال الزمخشريُّ: «فإنْ قلتَ: ما معنى (بكم)؟ قلتُ: فيه أوجه؛ أنْ يراد أنَّهم يسلكونه ويتفرَّق الماء عند سلوكهم ، فكأنَّما فرق بهم ، كما يفرق بين الشيئين بما يوسط بينهما ، وأنْ يراد: فرقناه بسببكم وبسبب إنجائكم ، وأنْ يكون في موضع الحال ، بمعنى: فرقناه متلبسًا بكم» [1].

وأرى أنَّ للباء ، بما فيها من معنى الإلصاق ، إيحاءً بعظيم قدرة الله تعالى ، وبالغ فضله على بني إسرائيل ، حيث فرق بهم البحر وهم ملاصقون له ، متلبِّسون بمصدر الهلاك الذي أودى بعدوهم ، فأنجاهم

---

(١) الكشاف ١/ ٢٨٠.

وأغرق عدوهم ، وهم منه جد قريب ، كما يعبر عنه قوله ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ ، وذلك معنى الملابسة الذي فسَّره الأستاذ الطاهر بن عاشور، بقوله: «والباء في ﴿ بِكُمُ ﴾ إمَّا للملابسة ، كما في: طارت به العنقاء ، وعدا به الفرس ، أي: كان فرق البحر ملابسًا لكم ، والمراد من الملابسة أنَّه يفرق وهم يدخلونه ، فكان الفرق حاصلاً بجانبهم» (١).

***

الباء ومعنى التعدية

جعل النُّحاة التعدية معنى من معاني الباء ، وقالوا إنَّها ترادف الهمزة ، ومثَّلوا لها بقوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ (البقرة: ١٧).

قال أبوحيان: «والباء في ﴿ بِنُورِهِمْ ﴾ للتعدية ، وهي إحدى المعاني الأربعة عشر التي تقدَّم أنَّ الباء تجيء لها ، وهي عند جمهور النحويين ترادف الهمزة ، فإذا قلت: خرجت بزيد ، فمعناه: أخرجت زيدًا ، ولا يلزم أنْ تكون أنت خرجت. وذهب أبوالعباس إلى أنَّك إذا قلت: أقمت زيدًا ، لم يلزم أنَّك قمت ، ففرق بين الباء والهمزة في التعدية ، وإلى نحو من مذهب أبي العباس ذهب السهيلي. قال: تدخل الباء – يعني المُعدِّية – حيث تكون من الفاعل بعض مشاركة للمفعول في ذلك الفعل، نحو: أقعدته وقعدت به ، وأدخلته الدار ودخلت به ، ولا يصحُّ هذا في مثل: أمرضته وأسقمته ، فلابد إذن من مشاركة ولو باليد ، إذا قلت: قعدت به ودخلت به ، ورد على أبي العباس بهذه الآية ونحوها. ألا ترى

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٧٢.

أنَّ المعنى: أذهب الله نورهم؟ ألا ترى أنَّ الله لا يوصف بالذهاب مع النور؟» [1].

وأرى أنَّ ما ذهب إليه المبرد والسهيلي هو غاية الدقة والإحكام ، وبه يظهر سرُّ إيثار النظم الكريم للتعدية بالباء ، والوقوف عند ظاهر ما يوجبه الاستصحاب ممَّا لا يليق بذاته تعالى مدفوع بأمرين؛ أولهما أنَّ ذهاب الله تعالى بنورهم من قبيل ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ ، وثانيهما أنَّه مجاز عن شدة الأخذ؛ لأنَّ الذاهب به هو القوي العزيز ، وبهما أجيب على الاعتراض الموجَّه إلى المبرد والسهيلي. قال الألوسي: «وعدَّى بالباء دون الهمزة لما في المثل السائر أنَّ (ذهب بالشيء) يُفهم منه أنَّه استصحبه وأمسكه عن الرجوع إلى الحالة الأولى ، ولا كذلك أذهبه ، فالباء والهمزة إن اشتركا في معنى التعدية فلا يبعد أنْ ينظر صاحب المعاني إلى معنى الهمزة والباء الأصليين ، أعني الإزالة والمصاحبة والإلصاق ، ففي الآية لطف لا ينكر ، كيف والفاعل هو الله تعالى القوي العزيز ، الذي لا رادَّ لما أخذه ، ولا مرسل لما أمسكه. وذكر أبوالعباس أنَّ: (ذهبت بزيد) ، يقتضي ذهاب المتكلم مع ز يد دون (أذهبته) ، ولعله يقول: إنَّ ما في الآية مجاز عن شدة الأخذ بحيث لا يرد ، أو يجوز أنْ يكون الله تعالى وصف نفسه بالذهاب على معنى يليق به ، كما وصف نفسه سبحانه بالمجيء في ظاهر قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ » [2].

ولصاحب تفسير المنار رأي بديع في إيثار الباء على الهمزة ، وهو ليس ببعيد عما ذكره الزمخشري وابن الأثير. قال: «وإنما قال

---

(١) البحر المحيط ١/ ٧٩.
(٢) روح المعاني ١/ ١٦٥.

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ، ولم يقل: (ذهب نورهم) ، أو: (أذهب الله نورهم)؛ للإشعار بأنَّ الله تعالى كان معهم بمعونته وتوفيقه عندما استوقدوا النار فأضاءت ، وذلك أنَّهم كانوا قائمين على سبيل فطرته التي فطر الناس عليها ، معتقدين صحة شريعته التي دعا الناس إليها ، وبأنَّه تخلَّى عنهم عندما نكبوا عن تلك السبيل ، وعاقوا ذلك المورد السلسبيل» [1].

وبتتبُّع مادة الذهاب في القرآن الكريم نجد أنَّها وردت متعدية بالباء في أربعة عشر موضعًا ، بصورة الماضي والمضارع والأمر والمصدر، وكلها لا تخلو من معنى الاستصحاب ، سواء كان على سبيل الحقيقة أو المجاز.

فممَّا هو على سبيل الحقيقة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ (يوسف: ١٥) ، وقوله ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾(يوسف: ٩٣) ، وقوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ («النمل: ٢٨).

وممَّا جاء على سبيل التجوُّز الأخذ أو الإهلاك أو الإمساك ، قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٠) ، وقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ (الزخرف: ٤١) ، وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ (المؤمنون: ١٨) ، وقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ (النور: ٤٣).

ومعنى اللصوق والمصاحبة في هذا كله واضح ، ولو رحت تستبدل الهمزة بالباء فيها ، لذهب معها سر البلاغة الذي قصد إليه

---

(١) تفسير القرآن الحكيم ١/ ١٧١.

النظم، أو فسد المعنى. وانظر أثر ذلك في قوله تعالى ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ خطابًا لرسوله ، وكيف أدت الباء بما فيها من معنى المصاحبة دورها في إبراز لطف الله وتكريمه لرسوله بمعيَّة ربه ، وكيف يضيع ذلك وينقلب إلى معنى الانتقام والأخذ لو قلت: (فإما نذهبنك) ، بما يدل عليه من التخلِّي عنه وإضاعته. وهو ما لا يليق بمقام الرسول عند ربه. وقل مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ (النساء: ١٩) ، حيث دلَّت الباء على حرصهم على المال وشغفهم به ، وحبهم لامتلاكه ، ولو أدى ذلك إلى عضل أزواجهم ، فلو استبدلت بها الهمزة ، وقلت: (لتذهبوا ما آتيتموهن) ، لدلَّ على أنَّهم يريدون إضاعة المال وإزالته من بين أيديهن ، تشفيًا وانتقامًا ، وهو ما لا ينسجم مع سياق الآيات.

وذلك ما أوضحه الزمخشريُّ بقوله: «والفرق بين (أذهبه) و(ذهب به) أنَّ معنى (أذهبه): أزاله وجعله ذاهبًا ، ويقال: ذهب به ، إذا استصحبه ومضى به معه ، وذهب السلطان بما له أخذه ، ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ ، ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾، ومنه: ذهبت به الخيلاء ، والمعنى: أخذ الله نورهم ، وأمسكه ، وما يمسك الله فلا مرسل له ، فهو أبلغ في الإذهاب» [1].

وبيَّن السيد الشريف وجه أبلغية الباء بقوله: «لما فيه من الأخذ والإمساك ، فإنَّ الباء وإنْ كانت للتعدية كالهمزة إلا أنَّ فيها معنى

---

(١) الكشاف ١/ ٢٠٠.

المصاحبة واللصوق» [1].

أمَّا تعدية الذهاب بالهمزة فقد وردت في القرآن خمس مرات في صورتي الماضي والمضارع ، وكلها تدل على إزالة مكروه أو إضاعة مرغوب ، وهي قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ (فاطر: ٣٤) ، وقوله ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ (الأنفال: ١١) ، وقوله ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ (الأحزاب: ٣٣) ، وقوله ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ (الأحقاف: ٢٠) ، وفي الآيات الأربع الأول ، دلَّت الهمزة على الإزالة دون استصحاب الله لفعل الذهاب؛ لأنَّ المذهوب به شرور لا يليق بذات الله تعالى استصحابها ، أمَّا قوله في الآية الأخيرة ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ ﴾ فقد دلَّت الهمزة فيها على أنَّ الكافرين أضاعوا نعيم الآخرة حين أضاعوا طيبات الحياة استمتاعًا بها ، وإفراغًا لشهواتهم فيها ، دون أنْ يستثمروها لآخرتهم ، فكانت تجارة بائرة ، أورثتهم دار البوار.

فالقول بأنَّه لا فرق بين الباء وهمزة التعدية ممَّا لا يلتفت إلى دقائق المعاني.

وممَّا هو دليل واضح على أنَّ للباء نشرًا دلاليًّا خاصًّا بها أنَّها تُجامع همزة التعدية ، مع مخالفة ذلك لما عليه جمهور النُّحاة ، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ (النساء: ٨٣) ، ممَّا جعل اللغويين والنُّحاة يفسِّرونه بما يجعل الباء

---

(١) حاشية السيد الشريف ١/ ٢٠١.

زائدة. قال أبوعبيدة: «أذاعوا به: أفشوه ، معناها أذاعوه» [1].

وقال الزمخشريُّ: «يقال: أذاع السِّرَّ وأذاع به. قال:

أَذَاعَ بِهِ فِي النَّاسِ حَتَّى كَأَنَّهُ بِعَلْيَاءَ نَـارٌ أُوقِدَتْ بِثَقُوب

ويجوز أن يكون المعـنى: فعلوا به الإذاعة ، وهو أبلغ من أذاعوه» [2].

وليس الوجه الثاني الذي ذكره الزمخشريُّ إلا محاولة للخروج من مجامعة الباء للهمزة ، كما أشار إليه ابن المنير: «وفي اجتماع الهمزة والباء على التعدية نظر ، لأنَّهما متعاقبتان ، وهو الذي اقتضى عند الزمخشريِّ قوله في الوجه الثاني (فعلوا به الإذاعة) ليخرجها عن الباء المعاقبة للهمزة» [3].

وإلا فما وجه البلاغة فيما ذكره صاحب الكشاف؟

ونرى أنَّ الآية تصوِّر دور المنافقين في نشر الشائعات وإثارة الفتنة بين المسلمين ، وهذه الباء تبرز حرصهم البالغ على استصحاب الأخبار المثيرة ، وتولِّيهم بأنفسهم إيصالها إلى جموع المسلمين ، وتبنيهم لها وتعهُّدها بالمتابعة حتى تحقق أهدافها ، من البلبلة والتشكيك ، وذلك هو معنى اللصوق الذي بثَّته الباء في ثنايا النظم. ولو قال: «أذاعوه» ، لاقتصر دورهم على نشر الخبر بين جماعة المسلمين ، دون أن يكون فيه تلك المبالغة من حرصهم ومتابعتهم بأنفسهم له.

اعتبار الباء بمعنى همزة التعدية هو الذي جعل المفسرين والنُّحاة

---

(١) مجاز القرآن ١/ ١٣٣.
(٢) الكشاف ١/ ٥٤٨.
(٣) الانتصاف ١/ ٥٤٧.

يسرعون إلى القول بزيادة الباء كلما عنَّ لهم موضعٌ اجتمع فيه هذان الحرفان. وإذا سألت عن سرِّ زيادتها فأحسنهم رأيًا من يقول إنها للتأكيد، حتى ولو كان الموقف لا يقتضيه ، ودونهم من يقول إنَّ دخولها كخروجها ، وهو القول الذي يجب أنْ ننزِّه الكتاب المعجز عن التسلل إليه.

وإليك طرفًا من هذه النماذج التي قيل فيها إنَّ الباء للتعدية ، أو زائدة؛ لنقف من خلالها على أسرار هذه الزيادة ، وأغراض التعدية ، وأعني بالزيادة هنا ما يعنيه البلاغيون فيما أسموه «الإطناب» ، أي أنَّها زيادة في المبنى يقابلها زيادة في المعنى.

قال تعالى يصف ما أصاب أمَّ موسى من هلع شديد بعد أنْ ألقت ابنها في اليمِّ ، وضلَّت عنها أخباره: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (القصص: ١٠).

قال أبوحيان تفسيرًا للباء في قوله ﴿ لَتُبْدِى بِهِۦ ﴾: «والإبداء: إظهار الشيء ، والظاهر أنَّ الضمير في (به) عائد على موسى – عليه السلام – فقيل: الباء زائدة ، أي: لتظهره ، وقيل مفعول (تبدي) محذوف، أي: لتبدي القول به ، أي بسببه ، وأنَّه ولدها» (١).

ولا أحسب أنَّ أيًّا من القولين يُظهر وجه البلاغة في دخول الباء على المفعول به؛ لأنَّ القول بزيادة الباء دون الكشف عن سرِّ زيادتها يجعل دخول الباء كخروجها ، والقول الثاني ما هو إلا محاولة للخروج من اجتماع حرفي التعدية.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ١٠٧.

وأجد للباء ظلالاً لا يخطئها الحس ، فما في الباء من معنى اللصوق يدلُّك على شدة الارتباط الروحي ، وتعلُّق القلب به ، وكأنَّه لايزال في أحشائها ، إنْ أصابه سوء فقد أصابها ، وإنْ نزل به مكروه نزل قبله عليها ، وهي حين اشتد بها الهلع وأوشكت على إظهار أمره ، فإنَّها بنفسها تبدي ، وبمصيرها المرتبط بمصيره تغامر ، فاللصوق والمصاحبة في الباء يخلعان على النظم الكريم من معاني الارتباط الوثيق والمصير الواحد والخطر المشترك ما لا يؤدَّى بغير الباء.

أضف إلى ذلك ما تضيفه الباء إلى زمن النطق بالجملة من بطء نتيجة زيادتها ليواكب الحركة النفسية ، وما يعتمل فيها من تردُّد بين الإقدام والإحجام ، ممَّا يكشف لك عن أعماق أمٍّ تتصارع بداخلها عوامل الخوف ، وتتجاذبها هواجس متباينة بين مصير ابنها المجهول في البحر، ومصيره المحتوم على يد فرعون.

وقال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾(النساء: ٢٣).

لقد أعانت الباء على تحقيق الكناية عن الجماع في﴿ دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾، بما لا يمكن أنْ تنهض به الحقيقة كما قدَّرها الزمخشريُّ بقوله: «يعني: أدخلتموهن الستر» [1] ، ممَّا يدل على قدرة هذه اللغة على

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٢.

الوفاء بآداب الإسلام ، وما يوجبه من الترفُّع عن التصريح بما يُستحسن الكناية عنه ، إلى جانب ما جسَّدته بما فيها من معنى اللصوق من الدلالة على شدة الارتباط والقرب الروحي ، والمخالطة النفسية بين الزوجين ، بما يحقق الغاية من قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ (الروم: ٢١).

وهذا هو الذي جعل القرآن يؤثر الباء في علاقة المؤمنين بالحور العين في الجنة فيقول: ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ ، ولم يأت في القرآن أبدًا: «وزوجناهم حورًا» ، مع صحَّته ، وذلك للإشعار بالملازمة وشدة القرب والالتصاق. قال الراغب: «﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ ، أي: قرنَّاهم بهن ، ولم يجئ في القرآن (وزوجناهم حورًا) ، كما يقال: زوَّجته امرأة» [١].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ (مريم: ٢٥). قال الأخفش: «وقال ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ﴾؛ لأنَّ الباء تزاد في كثير من الكلام» [٢].

وإذا كان الأخفش لم يذكر الغرض من زيادتها فإنَّ الزمخشريَّ قال: إنَّها صلة للتأكيد [٣] ، وهو الغرض الذي يذكره اللغويون والمفسرون لكل زيادة ، ولو لم يكن هناك ما يستدعي هذا التأكيد.

وأرى – والله أعلم – أنَّ زيادة الباء فيها إرشادٌ لمريم – عليها

---

(١) المفردات ٢١٦.
(٢) معاني القرآن ٢/ ٤٠٢.
(٣) انظر الكشاف ٣/ ٢١٢.

السلام – أنْ تباشر الهزَّ بنفسها ، ممسكة بالجِذْع ، ملتصقة به دون ما يمكن أنْ يتبادر من رميه بحجر أو غيره ، ممَّا يتخذه الناس وسائل لإسقاط الرُّطب ، وذلك يحقق لها أمرين: أولهما أنْ تستند إلي الجِذْع أثناء هزِّه ، وهو أعون لامرأة تعاني من الضعف والإرهاق إثر ولادتها، وثانيها أنَّ الهزَّ المباشر للجِذْع يساعد على كثرة سقوط الرُّطب منه. وهذا ملتفت إلى ما قاله ابن جني: «فأمَّا الإلصاق فنحو قولك: (أمسكت زيدًا) ، يمكن أنْ تكون باشرته نفسه ، وقد يمكن أنْ تكون منعته من التصرُّف من غير مباشرة له ، فإذا قلت: (أمسكت بزيد) ، فقد أعلمت أنَّك باشرته ، وألصقت محل قدرك ، أو ما اتصل بمحل قدرك به ، فقد صحَّ إذن معنى الإلصاق» [1].

وممَّا هو جليٌّ واضح في الفرق بين همزة التعدية والباء ما تجده من فرق بين قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ (القدر: ١) ، وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾(الشعراء: ١٩٣) ، فالأولى حكاية عن إنزال الله تعالى القرآن في هذه الليلة دون أنْ يذكر معه ما يدلُّ على استصحاب الواسطة له ، والثانية تدلُّ على استصحاب جبريل – عليه السلام – لما نزل به ، وفي ذلك دلالة على التكريم والاحتفاء بالمنزل ، ومَنْ أُنزل عليه ، ويدلُّك على ذلك ما وصف به جبريل – عليه السلام – من قوله ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾، وتعظيم الرسول إجلالٌ لقدر المرسل إليه.

وانظر إلى الباء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ

(١) سر صناعة الإعراب ١/ ١٣٨.

تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣) ، وكيف نشرت على سياقها من معاني الإلصاق والمصاحبة ما لا يمكن أنْ تؤديه تعدية الفعل «تفرَّق» بنفسه ، إذ لو قيل: «تفرقكم السُّبل» لكان المعنى أنَّ هذه السُّبل تضل السالكين وتبعدهم عن سبيل الله ، وليس فيه – كما هو مع الباء – أنَّ السُّبل في ذاتها متفرقة ضالة ، لا تلتقي على وجه من الحق ، والسالك لها سيظل حائرًا تتنازعه الأهواء ، وتلعب به رياح الضلال ، كلٌّ يحاول أنْ يشدَّه إليه ويمسك به ويستذلَّه ويستعبده وهو منزوع الإرادة ، عاجز عن قيادة نفسه. وإلى هذه النكتة ألمح الألوسي فقال: «والباء للتعدية ، أي: فتفرقكم حسب تفرُّقها أيادي سبأ ، فهو كما ترى أبلغ من: (تفرقكم) ، كما قيل من أن (ذهب به) ، لمـــا فيه من الدلالة على الاستصحاب ، أبلغ من (أذهبه)» [1].

ومثله قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ (البقرة: ١٦٦) ، لو قيل: «قطعتهم الأسباب» لدلَّ على بقاء هذه الأسباب قوية ، وأنَّ المتبوعين لم يلحق بهم سوء ، وأنَّ التابعين وحدهم هم الذين نزل بهم العذاب ، وهذا غير ما قصد إليه النظم من أنهم حين اتخذوا من دون الله أندادًا تعلقوا بحبال واهية ، وأسباب ضعيفة ، لم تلبث أنْ تقطعت بأيديهم حين حاولوا الاستمساك بها ، ظانين أنَّها تغني عنهم من الله شيئًا ، فإذا التابع والمتبوع في نار جهنم ، وإذا القوة لله جميعًا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٠). قال أبو عبيدة: «﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ مجازه:

---

(١) روح المعاني ٨/ ٥٧.

تنبت الدهن ، والباء من حروف الزوائد» [1].

وهذا لا يلتفت إلى الفرق بين «تنبت الدهن» ، و«تنبت بالدهن» ، والأول يُفهم أنها تنبت ما يصير دهنًا ، وليس بلازم أنْ تكون فترة الإنبات مصحوبة بالدهن ، على حين يدل الثاني على أنَّ الدهن يصاحبها منذ الإنبات ، وهذا أدلُّ على كمال النعمة وكمال القدرة ، حيث يخرج الله تعالى نباتها ومعه ما ينفع الإنسان ويسيِّر حاجاته ، وإليه ألمح الفخر الرازي حين قال: «أي: تنبت والدهن فيها» [2].

وتأمَّل جلال المصاحبة وما تنطق به الباء من معيَّة الله تعالى ، وقربه من رسوله - عليه السلام - وهو يطوي له الأرض وتسري به قدرته في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ (الإسراء: ١) ، وماذا يفقد النظم بفقد الباء التي يقال إنَّها لا تجامع الهمزة؟

* * *

«الباء» ومعنى الاستعلاء

إنَّ المتأمِّل لأسرار الذكر الحكيم يقف مأخوذًا وهو يرى إيثاره للباء تارة ، ولـ«على» تارة أخرى ، فيما يشبه أنْ يكون موضعًا واحدًا.

فهذا قوله تعالى خطابًا لنوح - عليه السلام - : ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ (هود: ٣٧) ، تجد في الإلصاق والمصاحبة بالباء ما يؤذن بمعيَّة الله تعالى وقربه ، وكأنَّها تربت على كتف نوح - عليه

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٥٦.
(٢) التفسير الكبير ٢١/ ٢٠١.

السلام – وتعلمه بأنَّه في حفظ الله ورعايته ، وهو نفس ما قصد إليه النظم في قولـــه: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ (القمر:١٣–١٤).

أمَّا قوله تعالى خطابًا لموسى – عليه السلام – : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾(طه: ٢٧ – ٢٩) ، فهو سياق آخر مشحون بالتحدي والإدلال بكمال القدرة ، حيث قضت حكمته تعالى أنْ يربِّى موسى على يد عدوٍّ يتربص به ، ويقتل من أجله جيلاً من الأطفال ، ولم يشأ سبحانه أنْ ينشأ موسى في الخفاء بعيدًا عن فرعون ، إمعانًا في التحدي ، وإذلالاً لفرعون بتسخيره لما أراده العليُّ القدير. وحسب مَنْ يدَّعي الألوهية أنْ يربِّي بيده مَنْ يكون على يديه ذهاب ملكه ، وليس غير «على» يصلح لهذا الموضع بما فيها من معنى الاستعلاء الذي يدل على ظهور موسى وعدم خفائه ، وهو الذي تترصده أعين الملأ من قوم فرعون. وهذا من دقيق ما كشف عنه السهيلي فيما نقله ابن القيم فرقًا بين الموضعين: «ومن فوائد هذه المسألة أنْ يسأل عن المعنى الذي لأجله قال تعالى ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ بحرف (على) ، وقال تعالى ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ بالباء ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾، وما الفرق؟ فالفرق أنَّ الآية الأولى وردت في إظهار أمر كان خفيًّا ، وإبداء ما كان مكتومًا ، فإنَّ الأطفال إذ ذاك كانوا يُغذَوْن ويُصنعون سرًّا ، فلما أراد أنْ يُصنع موسى ويُغذَّى ويربَّى على حال أمن وظهور ، لا تحت خوف واستسرار ، دخلت (على) في اللفظ تنبيهًا على المعنى؛ لأنَّها تعطي الاستعلاء ، والاستعلاء ظهور وإبداء ، فكأنَّه يقول سبحانه وتعالى: ولتصنع على أمن لا تحت خوف. وذكر

العين لتضمُّنها معنى الرعاية والكلاءة. وأمَّا قوله تعالى ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، فإنَّه يريد: برعاية منا وحفظ ، ولا يريد إيداء شيء ولا إظهاره بعد كتم ، فلم يحتج في الكلام إلى معنى (على)» [1].

وممَّا التبس فيه موضع الباء بـــ«على» قوله تعالى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ (آل عمران: ٧٥).

قال الطبري: «والباء في قوله ﴿بِدِينَارٍ﴾ و(على) يتعاقبان في هذا الموضع ، كما يقال: مررت به ، ومررت عليه» [2].

وإلى مثل ذلك ذهب الأخفش وأبوحيان والآمدي وغيرهم [3] من المفسرين والنُّحاة ، ذاهبين إلى أنَّ فعل الأمن يتعدَّى بالباء ، ويتعدَّى بـــ«على» ، وأنَّ هذا هو موضع «على».

وقد بيَّن الفخر الرازي وجه صحة التعدية بالحرفين ، فقال: «يقال: أمنته بكذا ، وعلى كذا ، كما يقال: مررت به وعليه ، فمعنى الباء إلصاق الأمانة ، ومعنى (على) استعلاء الأمانة ، فمَن اؤتمن على شيء فقد صار ذلك الشيء في معنى الملتصق به لقربه منه ، واتصاله بحفظه وحياطته ، وأيضًا صار المودع كالمستعلي على تلك الأمانة ، والمستولي عليها ، فلهذا حسن التعبير عن هذا المعنى بكلتا العبارتين. وقيل: إنَّ معنى قولك: أمنتك بدينار ، أي وثقت بك فيه ، وقولك: أمنتك

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٥ ــ ٦.
(٢) تفسير الطبري ٣/ ٣١٧.
(٣) انظر معاني القرآن ١/ ٢٨، والبحر المحيط ٢/ ٥٠٠، والإحكام في أصول الأحكام ١/ ٥٥.

عليه ، أي جعلتك أميناً عليه وحافظاً له» [1].

وهذا يتطلَّب البحث عن سر إيثار كل منهما في موضعه ، وحين ننعم النظر فيما جاء مُعدًّى بـــ«على» نجد المؤتمن عليه في الآيتين اللتين وردتا بـــ«على» في القرآن الكريم إنساناً عاقلاً ، يملك حرية الإرادة والتصرُّف ، والأمانة عليه تعني الإشراف والحفاظ عليه من أنْ تمتد إليه يد بسوء ، أو تعدو عليه عادية ممَّا لا يستطيع دفعه عن نفسه ، و«على» بحكم معناها ترمز إلى استعلاء المؤتمن بقوته واستحكام أمره على مَن اؤتمن عليه ، وهذا ما نطق به السياق في الموضعين.

الأول قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴾ (يوسف: ١١) ، والاستعلاء فيه يرمز إلى الإشراف والمراقبة والحفاظ على من اؤتمنوا عليه ، كما يرمز إلى قوتهم ورجاحة عقولهم ، بحكم أنَّهم أكبر منه سنًّا.

والموضع الثاني: جواب الأب لهؤلاء الذين أدلوا بقدرتهم وحسن إشرافهم بعد أنْ أضاعوا يوسف ، وجاءوا يطالبون الأب بإرسال شقيقه معهم إلى مصر ، وفي طيَّاته اتهامٌ لهم بالتفريط والتقصير ، وأنَّهم ليسوا أهلاً للحفاظ عليه ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ (يوسف: ٦٤).

أمَّا التعدية بالباء في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾، فقد جاءت في سياق لا يُخشى فيه على المؤتمن من عدوان خارجي يتطلب إشراف

---

(١) التفسير الكبير ٨/ ١٠٧.

المؤتمن ، وحفاظه عليه منه ، واستعلاءه بقوته وفكره دفاعًا عمَّا اؤتمن عليه ، وإنَّما هو موضع يُخشى فيه على الأمانة من ذات المؤتمن ، وقربه من الأمانة والتصاقه بها ، وتمكُّنه من حيازتها لنفسه ، هو الذي يكشف عن نزاهته أو خيانته ، الأمر الذي امتدح الله من أجله فريقًا من أهل الكتاب لم تُغْرهم كثرة المال الذي بين أيديهم بالسطو عليه ومنعه صاحبه ، وذمَّ الله فريقًا آخر لم تمنعهم قلة ما وُضع بأيديهم مؤتمَنين عليه من حيازته لأنفسهم ، والامتناع عن ردِّه إلى صاحبه ، إلا إذا أجبروا على ذلك.

وهذا موقف لا يصلح فيه غير الباء التي تدل على إلصاق المؤتمن بالأمانة وملابسته لها ، ليمتاز الأمين عن الخائن.

وقد ذهب النُّحاة إلى أنَّ فعل المرور يتعدَّى بالباء كثيرًا ، ويتعدَّى بـــ«على» قليلاً ، ولذلك حملوا تعديته بحرف الاستعلاء على أنَّها تجوز حينًا ، وعلى أنَّها نيابة عن باء الجر حينا آخر ، على أنَّ منهم مَنْ رأى تعديته بالباء مجازًا كذلك.

قال الزمخشري في المفصل: «والباء معناها الإلصاق ، كقولك: به داء ، أي التصق به وخامره ، ومررت به وارد على الاتساع ، والمعنى: التصق مروري بموضع يقرب منه» [1].

ولعله يقصد بذلك أنَّه مجاز مرسل علاقته المجاورة. وقال سيبويه: «وأمَّا: مررت على فلان ، فجرى هذا كالمثل ، وعلينا أمير كذلك ، وعليه مال أيضًا ، وهذا لأنَّه شيء اعتلاه ، ويكون: مررت عليه ، أنْ

---

(١) المفصل ٢٨٥.

يريد مروره على مكانه ، ولكنه اتسع» [1].

وكلام سيبويه في التجوُّز بـــ«على» يعطي احتمالين؛ أنْ يكون مجازًا بالاستعارة ، مثل قولك «عليه مال» ، وأنْ يكون مجازًا مرسلاً علاقته المجاورة.

ومع تسليم ابن هشام بأنَّ كلاً من الإلصاق والاستعلاء في تعدية فعل المرور بـــ«الباء» و«على» واردٌ على سبيل التجوُّز ، فإنه ذهب إلى أنَّ التعدية بالباء أكثر استعمالاً ، وهي أولى أنْ تكون أصلاً ، وحرف الاستعلاء نائب عنها: «إنَّ كلاً من الإلصاق والاستعلاء إنَّما يكون حقيقيًّا إذا أفضى إلى نفس المجرور ، كأمسكت بزيد ، وصعدت على السطح ، فإنْ أفضى إلى ما يقرب منه فمجاز ، كمررت بزيد ، في تأويل الجماعة ، وكقوله:

وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالمُحَلَّقُ

فإذا استوى التقديران في المجازية فالأكثر استعمالاً أولى بالتخريج عليه ، كمررت بزيد ومررت عليه ، وإنْ كان قد جاء في (لتمرون عليهم) ، (يمرون عليها):

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي

إلا أنَّ (مررت به) أكثر ، فكان أولى بتقديره أصلاً» [2].

ولا أدري علامَ بنى حكمه بكثرة تعدية هذا الفعل بالباء. وقد جاء المرور مُعدًّى بـــ«على» في القرآن أربع مرات ، على حين جاء مُعدًّى بالباء ثلاثًا فقط؟ومع ذلك فلم يقل لنا أحد منهم ما سر إيثار أحد الحرفين

---

(١) الكتاب ٤/ ٢٣٠، ط: هيئة الكتاب.
(٢) مغني اللبيب ١١٠، طبعة دار الفكر.

على الآخر في موضعه ، سواء أكان مستعملاً على سبيل الحقيقة أم واردًا على الاتساع.

وباستعراض الأمثلة التي تعدَّى فيها بـ«على» تجدها جميعًا تدل على مجاوزة الممرور عليه بالسير دون تلبُّث ، وللاستعلاء فيها دلالة على أنَّ المارَّ شامخ بأنفه ، لا يلقي لما مَرَّ به بالاً ولا يعيره اهتمامًا ، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف: ١٠٥) ، وقوله تعالى عقب ذكر قصص الغابرين: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(الصافات: ١٣٧ – ١٣٨) ، نعيًا على المخاطبين وتوبيخًا لهم على عدم اكتراثهم بما حدث لأمم قبلهم كانت أشد منهم قوةً وأكثر بأسًا.

وحرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾(هود: ٣٨) يجسِّد نظرة التعالي والاستهانة بما يصنع نوح والسخرية منه.

أما قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (البقرة: ٢٥٩) ، فربما يُتوهم أنَّ المارَّ متلبِّث يعالج فكرًا ، ويحدق نظرًا ، وليس مجاوزًا للمكان مستعليًا عليه ، وهو موضع الباء لا موضع «على» ، فإذا فتشت وجدت أنَّ المارَّ هنا لم يدقق نظرًا ويُعْمل فكرًا ، بل هي خاطرة عابرة ألقاها على لسانه وهو يَغذُّ السَّيْر ، ويُلْهب ظهر حماره ليجاوز القرية التي ألقت في روعه أنَّه الموت الذي لا تعقبه حياة ، ولو كان متأمِّلاً متدبِّرًا لاهتدى إلى عكس ما تفوَّه به.

فإذا جئنا إلى ما هو مُعدًّى بالباء ، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴾(المطففين: ٢٩-٣١) ، سمعت للباء همسًا مؤدَّاه أنَّ هؤلاء المجرمين كانوا يتعمَّدون الذهاب إلى المؤمنين ، والتحرُّش بهم، وإيذاءهم بالحركة والكلمة ، فهو ليس مرور العابر ، وإنما هو مرورٌ فيه تلبُّث واحتكاك وقرب وملاصقة ، ولعل قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ﴾ يشعرك بأنَّهم ذهبوا قاصدين إليهم ، متوقفين عندهم ، ولم يكن مرورهم عابرًا فرضته الطريق عليهم. وقد يقال إنَّ هناك ما ظاهره ينقض ذلك ، وهو قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٢) ، إذ الأليق بمقام عباد الرحمن إذا وجدوا لغوًا أنْ يبتعدوا عنه ، ويستعلوا عليه ويجاوزوه دون توقُّف ، وهذا موضع «على» ، فما للنظم الكريم عدل عنها إلى الباء؟

أقول – والله أعلم بمراده – إنَّ الآية قصدت إلى وصفهم بالثبات وقوة اليقين ورزانة الأحلام ، بحيث يستطيعون المحافظة على نزاهة ألسنتهم وأسماعهم وقلوبهم من اللغو مهما التصق بهم اللاغون ، واقترب منهم العابثون ، وذلك أدخل في المدح ، وأبلغ في الثناء ، وليس بمنجاة من مخالطة السفهاء واللاهين ، والحياة معترك قد يفرض على الإنسان ما لا يهواه ، وكمال الإيمان في أنْ يظل المسلم طاهرًا ، ولو أحاطت به النجاسات ، أما الإعراض عن اللغو فذلك ديدن المسلم حين يجد مندوحة عنه ، كما يصوِّره قوله ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ ، وذلك وصف آخر بابتعادهم عن مواطنه.

وقوله في الآية الثالثة والأخيرة من تعدِّي المرور بالباء ﴿ فَلَمَّا

تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾(الأعراف: ١٨٩) ، لا يصلح فيه سوى الباء ، لأنَّ الممرور به محمول في بطن ، ولا يمكن استعلاؤه عليه ، والمعنى: «فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إذلاق» [١].

يقول الدكتور محمد حسن عواد: «إن الفعل (مَرَّ) تعدَّى بالباء تارة ، وتعدَّى بـ(على) تارة أخرى ، وأدى الفعل (مَرَّ) مع كل حرف من الحرفين معنى مختلفًا عن المعنى الذي يؤدِّيه مع الحرف الآخر ، فـ(مرَّ على) هو مرور مصحوب بالاستعلاء ، و(مَرَّ بالمكان) هو مرور مع ملاصقة ، ولو كان معنى الحرفين واحدًا لاقتصر على حرف واحد. والغريب أنَّ الذين أجازوا وقوع بعض الحروف موقع بعضها الآخر ذهبوا إلى افتراض بعيد لا يقوم على أساس ، وهو أنَّ الفعل (مَرَّ) الأصل أنْ يتعدَّى بـ(على) ، وأنَّ الباء واقعة موقع (على) ، وذهبوا تارة أخرى إلى أنَّ الأصل أنْ يتعدى هذا الفعل بالباء ، وأنَّ (على) وقعت موقع الباء» [٢].

وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ الباء بمعنى «على» [٣] في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ (الأعراف: ٨٦).

والباء فيه توحي بالتربُّص وطول المكث والتلبُّث بالطرقات ، انتظارًا للمارِّين ، وإصرارًا على صدِّهم عن سبيل الله ، وكأنَّهم أقاموا

---

(١) الكشاف ٢/ ١٣٦.
(٢) تناوب حروف الجر في لغة القرآن ١٧.
(٣) انظر تفسير البيان للطوسي ٤/ ٤٤٦، ومجمع البيان للطبرسي ٤/ ٤٤٥.

بكل صراط إقامةً دائمةً ، فهم ملازمون للصراط ملتصقون به ، وفي ذلك من المبالغة في حرصهم على منع الهدى عن الناس ما لا يخفى ، وليس بمثله يوحي حرف الاستعلاء.

وفي قوله تعالى مصورًا نهاية معركة «أُحُد» ، وما نزل بالمسلمين نتيجة مخالفتهم لرسول الله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَابَكُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٣).

قال الطبري: «وأما قوله ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا﴾ فإنَّه قيل: غمًّا بغمٍّ ، معناه: غمًّا على غمٍّ ، كما قيل: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، بمعنى: ولأصلبنكم على جذوع النخل ، وإنما جاز ذلك لأنَّ معنى قول القائل: أثابك الله غمًّا على غمٍّ: جزاك الله غمًّا بعد غمٍّ يقْدُمه ، فكان كذلك معنى: فأثابكم غمًّا بغمٍّ؛ لأنَّ معناه: فجزاكم الله غمًّا بعقب غمٍّ يقْدُمه ، وهو نظير قول القائل: نزلت ببني فلان ، ونزلت على بني فلان ، وضربته بالسيف وعلى السيف» [1].

مفهوم هذا الكلام أنَّ الباء و«على» يؤدي كُلٌّ منهما ما يؤدِّيه الآخر ، وعليه فسيان قولك: «فأثابكم غمًّا على غمٍّ» ، وقوله ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا﴾ ، مع أنَّه سبق للطبري أنْ رفض مثل ذلك القول ، وما يؤدي إليه من تناوب الحروف «لأنَّ لكل حرف من حروف المعاني وجهًا هو أولى به من غيره ، فلا يصلح تحويل ذلك عنه إلى غيره ، إلا

---

(١) جامع البيان ٤/ ٨٨.

بحجة يجب التسليم لها» [1] ، وهو الرأي الذي ينشرح له الصدر ويليق بلغة القرآن الكريم ، لذلك أراني أميل إلىَ أنَّ الباء على أصلها من معنى الإلصاق والاختلاط ، وهي تشير إلى أنَّ الغمَّ الثاني كان موصولاً بالأول ، وملتصقًا به ، زيادةً في ابتلاء الله تعالى لهم على ما خالفوا فيه رسولهم ، وجزاء ما ألهتهم الدنيا بغنائمها عن واجب الطاعة لنبيهم ، إذ إنَّ توالي الغمِّ وإعقابه لغمٍّ سبقَ أشدُّ على المبتلى من تفريقه ، وهذا ما يشير إليه رأي نقله الخازن: «وقيل الباء على بابها ، والمعنى: غمًّا متصلاً بغمٍّ» [2].

وذهب الزجاجي [3] إلى أنَّ الباء بمعنى «على» في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾(النساء: ٤٢) ، على أنَّ المعنى: لو تسوَّى عليهم الأرض.

لكن المبالغة التي تؤديها الباء تضيع حينئذ ، ويضيع معها ما يهدف إليه النظم من أنَّ ما يراه الكافرون يوم القيامة من أهوال ، وما يتكشف لهم من سوء العذاب ، يجعلهم يتمنون أنْ يكونوا ترابًا يتداخل مع تراب الأرض ، ويختلط به ، حتى لا يكون لهم أثرٌ يدل عليهم ، وهذا هو معنى الإلصاق والاختلاط الذي يشرق من الباء ، وهو ينسجم مع ما صرَّح به القرآن في آية أخرى ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ (النبأ: ٤٠).

---

(١) جامع البيان ١/ ١٣١.
(٢) تفسير الخازن ١/ ٢٩٣.
(٣) انظر حروف المعاني ٨٦.

أما حرف الاستعلاء في «تسوَّى عليهم» فإنَّه لا يزيد عن كون الأرض صارت قبورًا لهم ، وهو دون الباء مبالغةً في تصوير ما أصابهم من الحسرة والفزع من العذاب.

***

«الباء» ومعنى الظرفية

يرد كثيرًا على ألسنة النُّحاة والمفسرين وشُرَّاح النصوص الأدبية قولهم إنَّ الباء بمعنى «في» ، ذاهبين إلى أنَّها تخلع معنى الإلصاق وتفارقه لتدل على الظرفية. من مثله ما قاله الأخفش في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (الزمر: ٥٥).

«يريد: في الإبكار ، وقد تقول: بالدار زيد ، تريد: زيد في الدار» [١].

وما قاله الألوسي في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ (الإسراء: ٧٩) ، قال: «والباء للظرفية ، أي: فتهجَّد في ذلك البعض» [٢] ، وما قاله العكبري في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ (الأنعام: ٦٠).

قال: «قوله تعالى {بالليل} ، الباء هنا بمعنى (في) ، وجاء ذلك لأنَّ الباء للإلصاق ، والملاصق للزمان والمكان حاصل فيهما» [٣].

وما قاله التبريزي في شرح المفضليات تفسيرًا لبيت المرقش:

---

(١) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٤٦٣.
(٢) روح المعاني ١٥/ ١٣٨.
(٣) إملاء ما منَّ به الرحمن ١/ ٢٤٥.

ومَنْزِلِ ضَنْكٍ لا أُرِيدُ مَبِيتَهُ كَأَنِّي بِهِ مِنْ شِدَّةِ الرَّوْعِ آنِسُ

قال: «أي: كأنِّي فيه من شدة الروعَ آنس مكروهًا» (١).

وإذا كان أبوالبقاء قد علَّل سرَّ مجيء الباء بمعنى الظرفية ، باعتبار ملاصقة الحدث للزمان والمكان ، فإنَّ ذلك لا يفسر اختصاص الباء بما هو موضع «في».

ويبدو لي – اتِّكاءً على المدلول اللغوي لكُلٍّ من حرفي الوعاء والإلصاق ، وانبعاثًا ممَّا يشيعه الحرفان من دلالات ثانوية – أنَّ حرف الظرفية يتلاءم مع كل ما يراد به الدلالة على التمكُّن والاستقرار ، والضرب في أعماق الشيء ، والتغلغل في أطوائه ، استمدادًا من إحاطة الظرف بمظروفه واحتوائه له ، واشتماله عليه ، في حين يستجيب حرف الإلصاق لكل غرض يراد منه مطلق التلبُّس والمصاحبة لأي جزء من أجزاء الملتصق به ، دون الدلالة على الدخول في أعماقه والاختفاء فيه.

وباستعراض الأمثلة التي أوردتها نماذج لما قيل إنَّ الباء فيها دالة على الظرفية ، نجد هذه الدقائق واضحة ، تنادي بجلال هذه اللغة ، وتشهد بإعجاز ما نزل بلسانها.

فبيت المرقش السابق تجد الشاعر فيه يعاني من ضيق بمنزله ، وإحساس يغمره بالخوف والرعب ، أفقده ما يجب أنْ يشيعه البيت في نفس آهله من الطمأنينة والأمان ، فخلع علينا من نفسه بهذه الباء ما يجسِّد أمامنا معاناته ، وينقل إلينا رؤيته في كونه لا يُحس في بيته طعم

---

(١) شرح المفضليات ٢/ ٨٢١.

الأمن ، ولا يشعر بأنَّه يوفر له الحماية ، وهو ما لا يمكن أنْ يؤدَّى بحرف الوعاء الذي يشيع في النفس دلالة التمكُّن والاستقرار.

وما جاء من الكتاب العزيز عدولاً عن حرف الظرفية إلى حرف الإلصاق ، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ ، قُصِد منه الدلالة على وقوع الوفاة بأي جزء من أجزاء الليل، وليس خصوص أعماقه وسطه ، كما يوحي به حرف الظرفية ، إيماءً إلى استغراق الزمن كله ، ومثله العلم بما كسبت أيدي الناس بالنهار كل النهار ، لا خصوص وقت هو أدخل فيه وأكثر تمكُّنًا. يدل لذلك أنَّ القرآن حين أراد الكشف عن نفاذ علمه تعالى وإحاطته بالخفي من أسرار خلقه عدل إلى حرف الظرفية في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ﴾(الأنعام: ١٣) ، إذ إن العلم الذي يدرك الساكن في أعماق الليل ، حيث يكون الظلام على أشده ، والعالم أشبه بالموتى يلفُّهم السكون من كل جانب ، ويدرك المتحرك في وسط النهار ، حيث تشتد حركة الناس ، لا يعجزه أنْ يدرك الساكن والمتحرك في أطرافهما وحواشيهما ، لذلك ذيَّله بقوله ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ .

ومن ثمَّ فقد جاءت آيات القرآن مؤثرة حرف المصاحبة والإلصاق في كل ما قُصد به استغراق الزمن كله ، ووقوع الحدث في أي جزء من أجزائه ، دون القصد إلى أعماقه أو الدلالة على التمكُّن فيه ، وهو الذي دأب المفسرون على تفسيره بالظرفية ، مثل قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (البقرة: ٢٧٤) ، وقوله ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ (آل

عمران: ١٧) ، وقوله ﴿ وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾} (آل عمران: ٤١)، وقوله ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ (الروم: ٢٣) ، وقوله ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ (الأنبياء: ٤٢) ، وقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾(فصلت: ٣٦) ، وهو قليل من كثير جاء فيها حرف الإلصاق دالاً على ملابسة هذه الأحداث للزمن كله ، ووقوعها في أي جزء من أجزائه. وحاول استبدال حرف الظرفية بالباء لترى أيَّ جناية على النص ترتكب باسم تناوب الحروف.

وقل مثل ذلك حين تدخل الباء على المكان ، فإنَّها تدل على وقوع الحدث به دون قصد إلى احتواء المكان له ، وتمكنه فيه ، بل مجرد الملابسة له والالتصاق بأي جزء من أجزائه. والمثل على ذلك قوله تعالى ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ (إبراهيم: ٣٧) ، فقد دلَّت الباء على عدم تمكنهم في هذا المكان واستقرارهم فيه ، حيث لا تتوافر فيه عوامل بناء الحضارات من زروع وثمار ، وموارد تفرض على المقيمين التمسك بالمكان ، ولا الحماية والأمن الذي يجعلهم مطمئنين في ربوعه. حياة التنقل إذن وعدم الاستقرار لا يلائمها حرف الظرفية ، ولا يتناغم معها غير حرف الملابسة.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ (آل عمران: ١٢٣) ، فلم تكن «بدر» حصناً يحتمي به المسلمون ، ولا صياصي يعتصمون فيها ، وإنَّما هي أرض مكشوفة ، وساحة قتال ، ومكان للكرِّ والفرِّ ، وظهور المسلمين على عدوهم في هذا المكان ليس راجعًا إلى طبيعة خاصة فيه ، وإنَّما هو فضل الله وعونه ، ولو جاءت «في»

لأشعرت بأنَّ للمكان طبيعة خاصة ، حماهم الله فيها من عدوهم ، وذلك يتنافى مع الغرض الذي يهدف إليه السياق من إرجاع الفضل في النصر إلى الله وحده ، كما يدل عليه نسبة فعل النصر إلى الله ، والجملة الحالية ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ .

وأوضح من ذلك دلالةً على عدم التمكُّن والاستقرار والإيحاء بمجرد الملابسة ، وقوع عين الرائي على السراب الخادع الذي لا يلبث أنْ يفارق المكان كلما تقترب منه ، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ (النور: ٣٩) ، وهو ما لا يصلح في التعبير عنه غيرُ حرف الملابسة ، دالاً على أنَّ هذا السراب ليس غائرًا في القيعة ولا متمكِّنًا فيها ، بل هو مجرد وهم خادع.

وهذا معنى الإلصاق بما يحمله من دلالة على عدم التمكُّن ، استطاع أنْ يبرز حالة القلق وما ينتاب المنافقين من هلع حين تهاجم بيوتهم فيسرعون إلى تركها ، في قوله تعالى﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ (الأحزاب: ١٣ – ١٤)، فهل يتلاءم مع هذا أنْ يقال: وما تلبثوا فيها ، وهم الذين يوشكون على الفرار مع أول داخل عليهم؟

وهذه لطيفة من لطائف النظم الحكيم هي أظهر دليل على أنَّ للباء طعمًا يختلف في مذاقه ورائحته عن حرف الوعاء ، مهما بدا أنَّهما

سواء. ذلكم هو قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران: ٢٦) ، فأنت تلمس في الآية غطاء الرحمة يجلّل سيف القوة والجبروت ، كما يدلُّ عليه المنح قبل المنع ، والإعزاز قبل الإذلال ، ثم تغطّي فيوضات الرحمة منفردة بالخير في قوله ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ ﴾ ، وتجيء الباء مشيرة إلى الفيض والعطاء ، لا إلى الحرمان والإمساك ، ولو جئت بدلاً منها بحرف الظرفية الدالة على إحاطة اليد بالخير ، واحتوائها له ، لوشى ذلك بالمنع والإمساك ، وهو عكس ما أوحت به الباء ، وذلك الذي استدعى حرف الإلصاق هنا هو الذي استدعاه في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الحديد: ٢٩). ألا ترى إلى قوله ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ بما يدل على تدفق فضله وعطائه؟

وحين قصد القرآن إلى التمكّن وشدة الإمساك والإحاطة بالممسك به جاءت «في» دالةً على هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ (الأنفال: ٧٠) ، لمَّا أنَّ المسلمين كانوا متمكنين من أسراهم ، يحيطون بهم إحاطة السوار بالمعصم ، وهو موضع «في» لا موضع الباء.

ويروعك جلال النظم الحكيم حين تقارن بين تعدّي المشي بالباء ، وتعدّيه بحرف الوعاء ، في قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ ﴾ (البقرة: ٢٠) ، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ (الحديد:٢٨).

فالمنافقون في الآية الأولى لم يتخذوا القرآن نورًا وهدايةً ، كما اهتدى به غيرهم ، فإذا به يضيء مِنْ حولهم ولا يضيء لهم ، وينتفع به سواهم وهم لا ينتفعون ، لذلك هم يتخبَّطون في الضوء ، ويتعثرون فيه، ولا تستطيع أبصارهم أنْ تتعدَّى مواطن أقدامهم.

والمؤمنون ، كما تصوِّرهم الآية الثانية ، يهتدون بالقرآن ، وتصحبهم هدايته ، يضيء لهم السبيل ، ويبلغهم الأمانيَّ ، وهو معهم لا يفارقهم. أرأيت كيف يضع القرآن كل حرف موضعه الأمكن فيه؟

وهاتان آيتان أخريان ناطقتان بإعجاز الكتاب العزيز ، هما قوله تعالى ، موصيًا الأبناء بآبائهم: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ (العنكبوت:٨) ، وقوله في إيصاء الآباء بأبنائهم: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ (النساء: ١١) ، فغاية ما يُطلب من الأبناء هو إحسان صحبة آبائهم كبارًا ، وإلصاق الإحسان بهم ، ومثله أمر فطريٌّ في الآباء لا يحتاج إلى وصية ، بل إنَّ الخوف عليهم من الإفراط في الحب والعطف لأبنائهم أكثر من الخوف على جفاء الأبناء لوالديهم ، ومن ثمَّ تعدَّى القرآن مرحلة الإحسان بالأبناء إلى الوصية فيهم بتوزيع الميراث بينهم بالعدل الذي ارتضاه الله شرعًا لخلقه ، لما له من أبلغ الأثر في نفوس الأبناء ، وكأنَّ القرآن يقول للآباء: إنكم حين تقسمون التركات بين أبنائكم إنَّما تتعدون ظواهرهم ، وتغرسون في قلوبهم المودة، أو تملأونها حقدًا وكراهية ، واعلموا أنَّ مجاوزة العدل

الذي شرعه الله بمثابة الطعنة النافذة في قلوب أبنائكم ، لذا عُدِّي فعل الإيصاء إحساناً بالوالدين بحرف الإلصاق ، وعُدِّي فعل الإيصاء بـــ«في» الظرفية حين كان الموصَى هم الآباء ، والموصَى به هو العدل بينهم ، والموصَى فيه هو قلوب الأبناء.

أما قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ (القمر: ٣٦)، فإنَّ الباء فيه تحمل معنى الاستخفاف والاستهزاء من قوم لوط بنبيِّهم ، دلالةً على عدم اكتراثهم وإلقاء بالٍ لما أنذرهم به ، ولم تكن النُّذر محل جدال ونقاش بينهم ، إذ إن الجميع لهم رأي واحد فيها ، وإنَّما تناقلوها بينهم تناقل المستهزئ بها ، الساخر منها ، لذلك لم يتعدَّ فعل المراء بحرف الوعاء ، ولم يقل: «تماروا في النُّذر» ، حتى لا يتبادر إلى الأذهان أنَّهم شغفوا أنفسهم بها ، وجعلوها محلاً للجدل ، وتبادل الفكر فيها ، ولا داعي إلى التضمين الذي لجأ إليه المفسرون تصحيحًا لتعدية المراء بالباء ، ذاهبين إلى أنَّه مُضمَّن معنى التكذيب ، ولولاه لتعدَّى بـــ«في» [1].

***

الباء ومعنى التبعيض

قليلاً ما التبس معنى الباء بمعنى التبعيض في حرف الابتداء ، والمواضع التي استشهد بها من القرآن لدلالة الباء فيها على التبعيض تقلُّ عن عدد أصابع اليد الواحدة ، ممَّا لا يجعلنا نتوقف طويلاً عند هذا المعنى للباء.

---

(١) انظر روح المعاني ٢٧/ ٩٠.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾(المائدة: ٦).

كان لتعدّي فعل الغسل إلى الوجوه والأيدي والأرجل بنفسه ، وتعدّي فعل المسح إلى الرأس بالباء ، أثره فيما دار من خلاف حول الغرض من مغايرة النظم ، وأذكى هذا الخلاف تدخُّل الفقهاء فيه ، بما يجمع بين المعنى اللغوي للباء ، وما ثبت لهم من فعل الرسول – عليه السلام – ومسحه ببعض رأسه ، فتمسَّك اللغويون بأصل الباء من الدلالة على الإلصاق ، وأيَّدهم من الفقهاء مَنْ يرون وجوب مسح جميع الرأس، وتمسَّك الشافعي بدلالة التبعيض فيها: «ومذهب ابن جني أنَّها زائدة في قوله تعالى ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ ؛ لأنَّ الفعل يتعدَّى إلى مجرورها بنفسه ، وعند غيره من الأئمة – منهم الشافعي – أنَّها تبعيضية ، أي: بعض رؤوسكم. قال ابن جني: أهل اللغة لا يوردون هذا المعنى ، وإنَّما يورده الفقهاء» (١).

وقد ذهب الآمدي إلى أنَّ دلالة الباء على التبعيض لا تُنافي دلالتها على الإلصاق ، فقال مفسرًا وجهة القائلين بمسح جميع الرأس ، والقائلين بمسح بعضه: «منهم من قال إنَّه بحكم وضع اللغة ظاهر في مسح جميع الرأس ، وهو مذهب مالك ، والقاضي عبدالجبار ، وابن جني ، مَصيرًا منهم إلى أنَّ (الباء) في اللغة أصلٌ في الإلصاق ، كما سبق تعريفه ، وقد دخلتْ على المسح وقرَنته بالرأس ، واسم الرأس

(١) حروف المعاني، تأليف عبدالحي حسن، ٤١.

حقيقةٌ في كله لا بعضه ، ولهذا لا يقال لبعض الرأس رأسٌ ، فكان ذلك مقتضيًا لمسح جميعه لغة. وهذا وإنْ كان هو الحق بالنظر إلى أصل وضع اللغة ، غير أنَّ عُرْف استعمال أهل اللغة الطارئ على الوضع الأصلي حاكم عليه ، والعُرْف من أهل اللغة في اطِّراد الاعتياد جابر باقتضاء إلصاق المسح بالرأس فقط ، مع قطع النظر عن الكل والبعض، ولهذا فإنَّه إذا قال القائل لغيره (امسح يدك بالمنديل) لا يُفهم من أحدٍ من أهل اللغة أنَّه أوجب عليه إلصاق يده بجميع المنديل ، بل بالمنديل ، إنْ شاء بكُلِّه ، وإنْ شاء ببعضه» [1].

فالتبعيض المفهوم ليس حقيقة ، وإنَّما هو مجاز مرسل من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء ، وليس من حقيقة الباء ، وهذا ما أوضحه المالقي بقوله: «والصحيح أنَّ الباء في ذلك كله للإلصاق ، كما تقدَّم في المعنى الثالث ، وإنَّما التبعيض الذي يمكن في التمثيل في الآية على المجاز ، لا أصل للباء فيه ، فهو مثل قولك: ضربت زيدًا ، وأنت تريد بعضه ، بإطلاق اللفظ مجازًا» [2].

أمَّا سر العدول إلى تعدية الفعل بالباء مغايرًا بينه وبين تعدية فعل الغسل بنفسه ، فذلك لأنَّ المسح لابد فيه من إلصاق اليد بالممسوح ومباشرته ، بخلاف الغسل الذي يتحقق بصبِّ الماء على العضو ، ولو لم يباشره العضو الغاسل ، وأوضح دليل على ذلك أنَّ الوجه واليدين عُدِّي إليهما فعل الغسل بنفسه في الوضوء ، وعُدِّي إليهما فعل المسح بالباء في التيمم ، لما كانا من الممسوحات. قال تعالى:﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٣/ ١٤.
(٢) رصف المباني ٢٢٤.

طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ (المائدة: ٦) ، فالباء إذن جيء بها للدلالة على مباشرة المسح باليد للرأس وإلصاقه بها ، وليس التبعيض من دلالتها.

ومما قيل فيه إنَّ الباء بمعنى «من» ، قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ (الإنسان: ٥ – ٦).

قال ابن قتيبة: «تقول العرب: شربت بماء كذا وكذا ، أي: من ماء كذا. قال الله تعالى ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ و ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾، ويكون بمعنى: يشربها عباد الله ، ويشرب منها» (١).

وللزمخشريِّ وجه لطيف في جعل الباء على أصلها. قال: «فإنْ قلتَ: لِمَ وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أولاً (يقصد: يشربون من كأس) ، وبحرف الإلصاق آخرًا؟ قلتُ: لأنَّ الكأس مبدأ شربهم ، وأول غايته ، وأمَّا العين فبها يمزجون شرابهم ، فكأنَّ المعنى: يشرب عباد الله بها الخمر ، كما يقول: شربت الماء بالعسل» (٢).

وأجد في الباء هنا دلالة تهمس بأنَّ العين هي مستراحهم ، والمكان الذي يجدون فيه متعة العين ، وسعادة النفس ، فالكأس بأيديهم وهم على حافة العين يشربون ، كلمات فرغت الكأس ملأوها منها ، ولذة الشرب ممزوجة بلذة العين ، فجاءت الباء دالةً على التصاقهم بالعين وقُربهم

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٥٧٥.
(٢) الكشاف ٤/ ١٩٦.

منها ، يؤيده وصف القرآن للجنات ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ ، وليس جريان الأنهار تحت المؤمنين إلا إمتاعًا لأنظارهم ، وإسعادًا لأنفسهم ، وليس لمجرد الشرب دنت منهم الأنهار.

***

الباء ومعنى الانتهاء

تعدَّى فعل الإحسان في القرآن بـ«إلى» ، وتعدَّى بالباء ، فحمل بعض النُّحاة والمفسرين تعديته بالباء على تعديته بـ«إلى» ، ذاهبين إلى أنَّ الأصل في تعدِّي هذا الفعل هو حرف الغاية ، ومن ثمَّ قالوا بأنَّ الباء بمعنى «إلى» ، ومَن لم يَرُق له القول بنيابة حرف الإلصاق عن حرف الغاية لجأ إلى تضمين فعل الإحسان معنى اللطف لتصح تعديته بالباء.

ولا أدري سببًا لجعل حرف الغاية هو الأصل في تعدية هذا الفعل به ، مع أنَّه لم يرد في القرآن مُعدَّى بـ«إلى» إلا مرةً واحدةً ، هي قوله حديثًا عن قارون في خطاب قومه له: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: ٧٧) ، وورد خمس مرات مُعدَّى بالباء ، مثل قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (النساء: ٣٦) ، كما ورد مُعدَّى باللام مرتين ، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ (الطلاق:١١).

والقول بأصالة تعدِّي الفعل بحرف لكثرة وروده ، ونيابته عن الآخر لقلة التعدِّي به ، لا يمكن التسليم به إلا في ضوء دراسة لتاريخ الألفاظ ونشأتها وتطورها ، وإحصاء دقيق لاستعمالاتها في عصور الاستشهاد ، وهو ما لم يتيسر بعدُ لهذه اللغة ، ومن ثمَّ فإنَّني أميل إلى ما

قاله أحد الباحثين: «فلا يجوز أنْ نصف فعلاً بالتعدِّي إلا إذا كان متعديًا في جميع أحواله في عصور الاحتجاج ، وكذا الفعل اللازم ، لا نصفه باللزوم إلا إذا كان في جميع استعمالاته لازمًا ، وكذا الفعل الذي يشيع تعدِّيه بحرف ، ثم نجده يتعدَّى بحرف آخر ، لا يجوز أنْ نصفه بأنَّه مُتعدٌّ بهذا الحرف دون ذاك؛ لأنَّ هذه الأحوال صحَّ ثبوتها في الكلام الذي يحتج به» (١).

وأرى – طبقًا لتتبُّع ما جاء في الذكر الحكيم – أنَّ فعل الإحسان يتعدَّى بـــ«الباء ، واللام ، وإلى» ، ولكُلٍّ تعدية موضعها وغرضها.

فقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ (الإسراء: ٧) ، قُصد به بيان غنى الله تعالى عن إحسان خلقه ، فهو لا ينتفع بطاعة كما لا تضرُّه معصية ، فإحسان المرء لا يجني ثمرته غيره، ولا ينتفع بنتائجه سواه ، ومن ثم جاءت اللام دالة على اختصاص المحسن بإحسانه ، ولم يقصد به إيقاع الإحسان بأنفسهم ، لا إلصاقه بهم، ولا إيصاله إليهم ، حتى تجيء الباء أو «إلى».

وقوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴿١٠٠﴾﴾ (يوسف: ١٠٠) ، لم يقصد به مجرد إيصال الإحسان إليه وإنهائه ، بل قصد من إحسان الله تعالى أنَّه صحبه في رحلة حياته كلها ، ولم يفارقه لحظة من لحظاته ، وهذا هو معنى الباء بما فيها من الإلصاق والمصاحبة ، والقول بتساوي المعنى في تعدِّي الفعل بالحرفين لصحة وروده بهما ، تضيع معه أغراض النظم ، وإنْ قال به أكثر المفسرين استلهامًا لبلاغة الذكر الحكيم ، كما جاء في

---

(١) تناوب حروف الجر في لغة القرآن ٧١.

الكشاف: «يقال: أحسن إليه ، وبه ، كذلك أساء إليه ، وبه. وقال:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةً» [1].

وهو واضح في أنَّه لا فرق في المعنى بين التعديتين ، كما أنَّ القول بتضمين الفعل معنى «لطف» [2] هو من قبيل البحث عن فعل يتعدَّى بالباء ، ولذلك اختلفوا في تقدير هذا الفعل المُضمَّن.

وخير مَنْ كشف عن بلاغة تعدِّي الفعل بالباء هنا هو الزركشي ، حين قال: «فإنَّه قال: أحسن بي وإليَّ ، وهي مختلفة المعاني ، وأليقُها بيوسف – عليه السلام – : «بي»؛ لأنه إحسان درج فيه ، دون أنْ يقصد الغاية التي صار إليها» [3].

يؤيد ما قاله الزركشي تعديد يوسف – عليه السلام – لمواطن الإحسان الذي درج فيه ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾، وما بين السجن والمجيء بهم من البدو كثيرٌ ممَّا طُوِي من إحسان الله ، إنجاءً من فتنة امرأة العزيز ، وتوليته ملك مصر ، وإيواء أخيه إليه ، وغير ذلك مما لا يُحصى.

وقد أعجبني ما ذكره المرحوم رشيد رضا في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ . قال: «يقال: أحسن به ، وأحسن له ، وأحسن إليه ، وقيل: إذا تعدَّى الإحسان بالباء يكون متضمنًا لمعنى العطف ، وعندي أنَّ التعدية بالباء أبلغ؛ لإشعارها بإلصاق الإحسان بمن يوجَّه إليه ، من غير إشعار بالفرق بينه وبين

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٤٤.
(٢) انظر البحر المحيط ٥/ ٣٤٨.
(٣) البرهان في علوم القرآن ٤/ ١٧٦.

المحسن ، والتعدية بـ(إلى) تشعر بطرفين متباعدين يصل الإحسان من أحدهما إلى الآخر» [1].

وهو معنى دقيق يلمح إلى قرب المحسِن من المحسَن إليه ، وحُبِّه له ومصاحبته بإحسانه دون إشعاره بذلك الإحسان ، وهو ما استوجب الباء في إحسان الله بيوسف ، وإحسان الأبناء بوالديهم ، وإشعارهم بأنَّه ردٌّ جميل لهم ، لا مجرد تفضُّل وتعطُّف عليهم ، واستوجب حرف الغاية في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلماحًا إلى بُعد قارون عن ربه ، وأنَّ إحسان الله تعالى إليه ليس مصحوبًا بمعية الله تعالى وحبه ، وإنما هو من قبيل الاستدراج لا من قبيل الإكرام.

وقال ابن الجوزي في قوله تعالى خطابًا لقوم لوط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: ٨٠): إنَّ الباء في «بها» بمعنى «إلى» ، ومعناه: ما سبقكم إليها [2].

والمتتبِّع لآيات الكتاب العزيز يجد أنَّ مادة السبق عُدِّيت بأربعة حروف ، هي: الباء ، واللام ، وعلى ، وإلى ، وقد خلع كل حرف على سياقه من معناه ما يحقق أغراضه ، ويعبر عن مقاصده.

فحيث يكون التنافس والإسراع للوصول إلى غاية يتطلع المرء إليها تأتي «إلى» ، كما في قوله تعالى على لسان الكافرين ، إدلالاً بقوتهم ، وقدرتهم على الوصول إلى ما يرونه خيرًا ، دون أنْ يسبقهم إليه أحد: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾

---

(١) تفسير القرآن الحكيم ٥/ ٨٤.
(٢) انظر منتخب قرة العيون النواظر ٨٢.

(الأحقاف: ١١).

وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (الحديد: ٢١)، حيث دعوة الخلق إلى مائدة الخالق، وما تحفل به من فيوضات الرحمة والمغفرة-، وهو ما يدعو إلى الإسراع في الوصول إليها.

وحيث يكون الضرر، وما يقع على المضرور من نقم الله وعذابه، تأتي «على» مُشْعرة بوطأة ما وقع عليه من سبق القضاء، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ (هود: ٤٠).

ومَنْ سبق عليه القول هو مَنْ قضى الله عليه بالهلاك مع الهالكين.

وحين يكون المسبوق إليه هدفًا يُخْلِص المرء نفسه له، ويجرِّدها للسعي من أجله، وينشغل به عمَّا سواه، أملاً في الحصول على ما فيه من النفع، تجيء اللام بما فيها من معنى الاختصاص دالةً على ذلك كله، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ (المؤمنون: ٦١).

ولعلك تُحس جمال التناسق بين حرف الوعاء، بما يدل عليه «على» من إغراق أنفسهم في الخيرات وتمكُّنهم فيها، وبين اللام التي تُشعر باختصاص سعيهم لها، وعملهم الدائب من أجلها.

ولكون اللام دالة على النفع جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠١)، بإيثار اللام،

إشعارًا بعظيم نعمته حين خصَّهم بالجنة ، وأبعدهم عن النار ، ولمثل ذلك جاءت اللام في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾ (الصافات: ١٧١ – ١٧٢) ، لما في النصر من خير قضاه الله لهم ، ومنفعة اختصهم بها.

أمَّا تعدية فعل السبق بـــ«إلى» في قوله تعالى: ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، فهي توحي بأنَّهم استصحبوا هذا الفعل الفاحش ، وذهبوا به دون أنْ يشاركهم فيه أحد من خلق الله ، بما يدل على أنَّهم اقترفوا هذا الإثم ، واخترعوا تلك الفاحشة بما لم يسبقوا به ، وذلك مستوى من التدني والحقارة عافته نفوس البشرية ، على كثرة اقترافها للآثام.

***

الباء ومعنى المجاوزة

المجاوزة أحد المعاني التي أثبتها النُّحاة للباء ، وتنازعتها أقوالهم حين تعدَّى السؤال بها «قال بعضهم: يختص هذا المعنى بالسؤال ، وقيل: لا يختص ، بدليل قوله تعالى ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ ، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ ، وأنكر البصريون مجيء الباء للمجاوزة ، وحملوها مع السؤال على السببية ، وردَّ بأنَّ الكلام حينئذ لا يفيد أنَّ المجرور هو المسئول عنه ، مع أنَّه المقصود» [1].

واختلفت آراء المفسرين حول الآيات التي قيل فيها بأداء الباء

(١) حاشية الصبان على الأشموني ٢/ ٢٢٨.

معنى «عن» ، كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٩).

قال القرطبي: «قال الزجاج: المعنى: فاسأل عنه. وقد حكى جماعة من أهل اللغة أنَّ الباء تكون بمعنى (عن) ، كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ . وقال الشاعر:

هَلاَّ سَأَلْتِ الخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي

وقال علقمة بن عبدة:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ

أي عن النساء ، وعمَّا لم تعلمي.

وأنكر علي بن سليمان ، وقال: أهل النظر ينكرون أنْ تكون الباء بمعنى (عن)؛ لأنَّ في هذا فسادًا لمعاني قول العرب: لو لقيت فلانًا للقيك به الأسد ، أي: للقي بلقائك إياه الأسد ، المعنى: فاسأل بسؤالك إياه خبيرًا» (١).

وما ذهب إليه علي بن سليمان ماضٍ على أنَّ الباء في الآية هي باء التجريد ، وهو أحد الآراء التي ذكرها الزمخشريُّ ، ورجَّحها صاحب الكشف فيما نقله الألوسي عنه: «وجوز أنْ يكون الكلام من باب التجريد ، نحو: رأيت به أسدًا ، أي: رأيت برؤيته أسدًا ، فكأنَّه قيل هنا: فاسأل بسؤاله خبيرًا ، والمعنى: إنْ سألتَه وجدته خبيرًا ، والباء عليه ليست صلة ، فإنَّها باء التجريد ، وهي على ما ذهب إليه الزمخشريُّ سببية ، والخبير عليه هو الله تعالى أيضًا ، وقد ذكر هذا الوجه السجاوندي ، واختاره صاحب الكشف. قال: وهو أوجه ليكون كالتتميم

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/ ٦٣.

لقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ إلخ ، فإنَّه لإثبات القدرة مدمجًا فيه العلم»[1].

ومع وجاهة القول بالتجريد ، وبُعده عن تكلُّف القول بتضمين السؤال معنى الاعتناء ، أو تداخل معاني الحروف ، وظهور وجه البلاغة فيه ، بدلالته على كمال الصفة في ذاته تعالي ، وتناسقها مع كمال قدرته في خلق السموات والأرض ، إلا أنَّ جَعْل الباء معه للسببية لا يتفق وهذا الوجه ، والأولى إبقاء الباء على أصل معناها من الدلالة على المصاحبة الذي هو لازم الإلصاق ، والمصاحبة في الباء غيرها في «مع» ، كما أوضحه العيني في قوله: «والفرق بين الباء و(مع) أنَّ (مع) لإثبات المصاحبة ابتداءً ، والباء لاستدامتها» [2].

وقد ذكر هذا المعنى لباء التجريد الأستاذ عبدالمتعال الصعيدي حين علَّق على قول الخطيب القزويني: «ومنها نحو قولهم: لئن سألت فلانًا لتسألنَّ به البحر». قال: «نحوه كل ما تكون باء التجريد فيه داخلة على المنتزع منه ، وتفيد فيه معنى المصاحبة» [3].

فالباء في الآية بدلالاتها على المصاحبة توحي بأنَّ السائل عن ذات الله تعالى وصفاته يجب أنْ يستصحب الله تعالى في طلبه المعرفة عنه ، ويسترشد بوحيه للعلم به ، فإنَّه لا يدل على ذاته وصفاته مثله ، وهو أعلم بما يخبر به عن نفسه ، فمن طلب معرفة الله تعالى غير مستصحب هديه ضلَّ وغوى.

ونفس الاختلاف دار حول قوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ ﴾

---

(١) روح المعاني ١٩/ ٣٩.
(٢) وسائل الفنة في شرح العوامل المائة ورقة ١٨.
(٣) بغية الإيضاح ٤/ ٤٤.

لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾} (المعارج: ١-٣).

فمن قائل إنَّ الباء بمعنى «عن» [١] ، ومن قائل بتضمين «سأل» معنى دعا [٢] ، أو معنى اهتمَّ واعتنى [٣].

وأرى – والله أعلم بمراده – انطلاقًا ممَّا قرره الأعلام من أنَّ «عن» تدل على مجاوزة ما تضاف إليه ، أنَّ السؤال حين يتعدَّى بها يدل على أنَّ المسئول عنه مُغيَّبٌ عن السائل بعيدٌ عنه ، سواء أكان ذلك البُعد حسيًّا أم معنويًّا ، حقيقةً أم تجوُّزًا ، كما في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ (النازعات: ٤٢) ، حيث أمرُ الساعة مُغيَّبٌ عن السائل ، وهو يستبعد وقوعها ، ولذلك كان جوابه ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴾، مشيرًا إلى غاية قربها.

وحين يُعدَّى السؤال بالباء يدلُّ على أنَّ المسئول عنه ملاصق للسائل متلبِّس به ، قريب منه ، وهذا ما قصد إليه القرآن في آية المعارج ، مبالغةً في تحقيق وقوع العذاب بالكافرين ، وتأكيد لحوقه بهم، فكأنَّ السائل يسأل عمَّا هو واقع به مصاحب له.

وفي هذا ما فيه من النداء على كمال غفلته ، وخفَّة عقله ، وغيبة وعيه وإدراكه ، فهو لا يشعر بما حوله ، ولا يتنبَّه لخطر محدق به ، وهلاك هو منه جد قريب.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾

---

(١) انظر رصف المباني ٢٢٢.
(٢) انظر الكشاف ٤/ ١٥٦.
(٣) انظر روح المعاني ٢٩/ ٥٥.

(الفرقان: ٢٥).

يقول القرطبي: «(بالغمام) أي: عن الغمام ، والباء و(عن) يتعاقبان كما تقول: رميت بالقوس وعن القوس» [١].

والمتأمّل لأسرار لغة القرآن لابد واجدٌ فرقًا بين استعمال «عن» واستعمال الباء في موضعهما من النظم الكريم ، ولا يمكن أنْ يتحد الغرض في هذه الآية ، وفي قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (ق: ٤٤).

فالآية الأولى تكشف عن هول يوم القيامة ، بما يجريه الله تعالى من تغيير في صورة الكون إدلالاً على كمال قدرته ، حيث يبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، فإذا السماء ، هذا الخلق العظيم الذي أخبر عنه بقوله ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾، يرسل عليها الغمام متدافعًا متدفقًا غزيرًا فيشققها ويفتحها ، تمهيدًا لإزالة صورتها وتغيير خلقها ، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ (إبراهيم: ٤٨) ، وباء الملابسة والمصاحبة هي التي تحقق الغرض من شدة الغمام وكثرته ، وقدرة الله على أنْ يشقق به أعظم الأجرام الكونية.

أما الآية الثانية فالغرض فيها هو الكشف عن قدرة الله تعالى على بعث خلقه وإعادة الحياة إليهم ، وحين يأذن بذلك فإنَّ الأرض تتشق عمَّا في باطنها ، ليجد الخلق أنفسهم فوق سطحها سراعًا إلى موقف الحساب والجزاء.

فكمال القدرة على بعث الموتى ومجاوزتهم لقبورهم ، وسرعة

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٣.

حشرهم ، لا يصوِّره إلا حرف المجاوزة ، بما يدلُّ عليه من سرعة انفصالهم عن الأرض ، ومجاوزتها لما فيْ جوفها ، ليتلقوا مصيرهم. ألا ترى إلى قوله ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾

وإلى ذلك أشار الزمخشريُّ: «فإنْ قلتَ: أي فرق بين قولك: انشقت الأرض بالنبات ، وانشقت عن النبات؟ قلتُ: معنى انشقت به ، أنَّ الله شقَّها بطلوعه فانشقت به ، ومعنى انشقت عنه: أنَّ التربة ارتفعت عنه عند طلوعه. والمعنى: أنَّ السماء تتفتح بغمام يخرج منها» [1].

ومثله قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ (المزمل: ١٧– ١٨) ، تهويلاً من شأن يوم القيامة ، وكشفاً عن شدَّته على الكافرين ، فما يشقق السماء ويصدعها ماذا هو صانع بالكافرين ، وهم أضعف خلقه وأهوانهم على ربهم.

وقد أحسن الألوسي – رحمه الله – الكشف عن سرِّ الباء في هذه الآية ، فقال: «والباء للآلة ، مثلها في قولك: فطرت العود بالقدوم فانفطر به ، يعني أنَّ السماء على عظمها وإحكامها ، تنفطر بشدة ذلك اليوم وهوله ، كما ينفطر الشيء بما يفطر ، فما ظنك بغيرها من الخلائق» [2].

وباء الآلة ليست إلا باء المصاحبة؛ لأنَّ الفعل يقع بمصاحبتها وإلصاقه بمجرورها.

---

(١) الكشاف ٣/ ٨٩.
(٢) روح المعاني ٢٩/ ١٠٩.

وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام: ١).

قال الخازن: «وقال النضر بن شميل: الباء في قوله﴿ بِرَبِّهِمْ ﴾ بمعنى (عن) ، أي: عن ربهم يعدلون وينحرفون ، من العدول إلى الشيء» (١).

فإذا كان العدل يتعدَّى بـــ«عن» دالاً على الانحراف عن الشيء وتجاوزه ، ويتعدَّى بـــ«إلى» دالاً على الميل إليه ، والاتجاه نحوه ، فهو كذلك يتعدَّى بالباء دالاً على معنى التسوية ، كما جاء في لسان العرب: «وعدلت الشيء بالشيء أعدله عدولاً ، إذا ساويته به» (٢).

وتسوية المشركين بين الخالق والمخلوق ، بين من خلق السموات والأرض وجعل منها الظلمات والنور وبين من لا يخلقون شيئًا وهم يُخلقون ، هو كمال النعي على هذه العقول وغاية التسفيه لأحلامهم.

فلماذا القول بنيابة حرف عن حرف آخر وكلاهما ممَّا يتعدَّى به الفعل ، ولكلٍّ دلالته التي يضفيها على التراكيب التي ينسجم معها؟

قال صاحب المنار: «﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾، هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، أو على جملة ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ، وقد عطفت بـــ(ثم) الدالة على بُعد ما بين مدلولي المعطوف والمعطوف عليه ، لإفادة استبعاد ما فعله الكافرون ، وكونه ضد ما كان يجب عليهم للإله الحقيق بجميع المحامد ، لكونه هو الخالق

---

(١) تفسير الخازن ٢/ ١١٧.
(٢) لسان العرب ٥/ ٢٨٤٠.

لجميع الكون العلوي والسفلي ، وما فيه من الظلمات الحسية والمعنوية ، والهادي لما فيه النور الذي يهتدي به الموفقون في كل ظلمة منها ، كأنه قال: وهم مع ذلك يعدلون به غيره ، أي يجعلونه عِدْلاً له ، أي عديلاً مساويًا له في كونه يُعبد ، ويُدعى لكشف الضر وجلب النفع ، فهو بمعنى يشركون به» (١).

وقد أعانت الباء على التجوُّز بالحذف ، ممَّا يدلُّ على أنَّ المحذوف، وهو المفعول به ، أحقرُ وأتْفَه من أنْ يُصرَّح بذكره في حضرة هذا الخالق العظيم ، أو الدلالة على أنَّه ليس لله عِدْل حتى يُذكر ويسوَّى بالخالق.

***

الباء ومعنى اللام

كثرت تعدية الإيمان بالباء في القرآن الحكيم ، كما عُدِّي باللام في أكثر من موضع ، ممَّا حدا بالبعض إلى القول بأنَّ مدلول الفعل وما يؤديه التركيبان لا يختلف معهما ، على حدِّ ما جاء في البحر المحيط «وقيل: آمنت به ، وآمنت له واحد» (٢).

ومنهم مَنْ ذهب إلى أنَّ التعدية باللام في ضمنها تعدية بالباء ، وهو قول ابن عطية: «يؤمنون ، معناه: يصدقون ، ويتعدَّى بالباء وقد يتعدَّى باللام ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن ﴾» ، كما قال: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ ﴾، وبين التعديتين بَوْن ، وذلك أنَّ التعدية باللام في ضمنها

---

(١) تفسير القرآن الحكيم ٧/ ٢٥٩.
(٢) البحر المحيط ٤/ ٣٦٥.

تعدٍّ بالباء ، يُفهم من المعنى» [١].

وكأنِّي به يرى أنَّ الذي يؤمن بالله لابد أنْ يستجيب له وينقاد له ، بخلاف من تؤمن له ، فإنَّك تسمع له وتصدِّقه دون أنْ يصحب ذلك عمل بما يقتضيه قوله.

ومنهم مَنْ يُضمِّن فعل الإيمان المُعدَّى باللام معنى الانقياد [٢] ، أو معنى الاستجابة [٣] ، أو معنى الاتِّباع والخضوع ، أو معنى الميل والائتمان والجنوح ، وهذان نصَّان ممَّا جاء في تفسير واحد في تضمين الفعل. قال صاحب المنار في تفسير قوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ (طه: ٧١): «تعدية الإيمان باللام تضمين يفيد معنى الاتباع والخضوع»[٤]. وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ٦١): «نكتة تعدية الإيمان بالباء في الله تعالى ، وباللام في المؤمنين ، أنَّ الأول على الأصل في آمن به ، ضد كفر به ، وصدق به ، ضد كذب به ، وأما الثاني فقد ضُمِّن معنى الميل والائتمان والجنوح للمؤمنين» [٥].

ورأى أبو حيان أنَّ الإيمان إذا عُدِّي بنفسه دلَّ على التصديق ، وهو الأصل في التعدية ، وإذا تعدَّى بالباء أو اللام كان الفعل مُضمَّنًا معه معنى الاعتراف أو الوثوق [٦].

في حين يرى آخرون أنَّ تعديته بالباء جارية على الأصل كتعدية

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١/ ١٤٤.
(٢) انظر روح المعاني ١٦/ ٢٣١.
(٣) السابق ١/ ٢٩٨.
(٤) تفسير القرآن الحكيم ٩/ ٧١.
(٥) السابق ١٠/ ٥١٩.
(٦) انظر البحر المحيط ١/ ٣٨.

الفعل بنفسه ، وأنَّ تعديته باللام على غير الأصل ، من باب تضمين الفعل: «﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ : لن نصدِّق لك بأنَّ مـــا نسمعه كلام الله...أ.هـ كرخي. وأورد عليه أنَّ الإيمان إنَّما يُعدَّى بنفسه ، أو بالباء ، لا باللام ، وأجيب بأنَّ اللام للتعليل ، لا للتعدية ، أي: لن نؤمن لأجل قولك، أو بأنَّ (نؤمن) ضُمِّن معنى نُقر» [1].

وحين نتجّه إلى المعاجم لا نجدها تفرق في الدلالة بين الإيمان متعديًا بالباء وبينه متعديًا باللام ، فالإيمان معناه التصديق ، وآمن بالشيء: صدَّقه ، {وما أنت بمؤمن لنا} معناه: ما أنت بمصدِّق لنا [2] ، و«الإيمان: الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة» [3] ، كما جاء في القاموس المحيط.

فإذا كان للإيمان هذه الدلالة اللغوية التي ذكرها الفيروزابادي ، فلا غرو أنْ يتعدَّى بالباء دالاً على الثقة والقبول بشرع الله ، وباللام دالاً على معنى الخضوع والانقياد ، وليس في ذلك تضمين.

والغريب أنْ يُضمَّن الإيمان معنى الاعتراف والوثوق ، إلى جانب دلالته على التصديق لمجرد تصحيح تعديته بالباء ، في مثل قوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، مع أنَّ التصديق نفسه يتعدَّى بالباء ، كما في قوله تعالى ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾} (التحريم: ١٤) ، وقوله ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ (المعارج: ٢٦).

---

(١) الفتوحات الإلهية ١/ ٥٤.
(٢) انظر لسان العرب ١/ ١٤١.
(٣) القاموس المحيط (ترتيب القاموس المحيط) ١/ ١٨٢.

ولاشك أنَّ ثمَّة فرقًا بين : صدَّقه ، وصدَّق به؛ لأنَّ الأول يعني الإقرار بصدقه ، والثاني يقرن تصديقه بالعمل بمقتضى ما صدَّقه ، لما في الباء من معنى المصاحبة والإلصاق.

ومثله «آمن به» ، فهو يدل على الإقرار به وتصديقه ، والعمل بما يقتضيه المصدق به ، وكأنَّه يجد الأمن في رحابه ، ويشعر بالأمان في صحبته. قال الراغب: «ويقال لكل واحد من الاعتقاد والقول الصادق والعمل الصالح: إيمان... قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ ، قيل: معناه: بمُصدِّق لنا. إلا أنَّ الإيمان هو التصديق الذي معه أمْنٌ. وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾، فذلك على سبيل الذمِّ لهم ، وأنَّه قد حصل لهم الأمن بما لا يقع به الأمن» (١).

وبذلك يتضح الفرق بين تعدية الفعل بالباء وتعديته باللام ، بما ينبئ عن طبيعة الحرفين ووحيهما الخاص بهما.

فالباء بما تدلُّ عليه من الملابسة والمصاحبة والإلصاق تخلع على فعل الإيمان وجود الأمن في ظلال مَنْ يؤمن به ، ويلتمس الحماية في صحبته ، والطمأنينة في ملابسته ، فيكون حريصًا على رضاه ، عاملاً بما يأمره به ، ولذلك فإنَّ الإيمان لا يتعدَّى بالباء إلا في الإيمان بالله ورسله وكتبه ، لما أنَّ الإيمان بالرسول هو امتداد للإيمان بالله ، وكذلك الإيمان بالكتب؛ لأنَّ الكتب كلام الله.

أمَّا اللام فإنَّ الفعل يكتسب معها معنى الاستجابة للمصدق فيما دعا إليه ، والانحياز له في رأيه ، أو ما جاء به ، انطلاقًا من طبيعة اللام

---

(١) المفردات ٢٦، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

الدالة على اختصاصه بهذه المزيَّة ، واستحقاقه للتصديق ، وهو ما لا يكون إلا من بشر لمثله ، ولا يقال: آمن لله ولا لكتبه ، كما يقال: آمن بالله وبكتبه.وعليه جاء قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ (يوسف: ١٧) ، وقوله: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ (المؤمنون: ٤٧) ، وقوله ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ (الشعراء: ١١١) ، وقوله ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ (يونس:٨٣).

وقد كان الزمخشريُّ أقرب المفسرين إلى لمح هذا الفرق ، فقال: «فإنْ قلتَ: لِمَ عُدِّي فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى ، وإلى المؤمنين باللام؟ قلتُ: لأنَّه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به ، فعُدِّي بالباء ، وقصد السماع من المؤمنين ، وأنْ يسلم لهم ما يقولونه ، ويصدقه لكونهم صادقين عنده ، فعُدِّي باللام ، ألا ترى إلى قوله ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ ؟ ما أنْبَاه عن الباء!» [1].

غير أنَّ هناك ثلاثة مواضع من مشتبه النظم الحكيم ، وفي سياق يكاد يكون واحدًا ، ومع ذلك فقد عُدِّي اثنان منها باللام ، وواحد بالباء ، ممَّا يتطلب البحث عن سر هذه المغايرة فيما هو أشبه بالموضع الواحد ، وهي:

قوله تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٢٠-

---

(١) الكشاف ٢/ ١٩٩.

.(١٢٣

وقوله: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ ﴾ (طه: ٧٠ – ٧١).

وقوله تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ (الشعراء: ٤٦ – ٤٩).

وهو ما لا أجد له تعليلاً خيرًا ممَّا ذكره الخطيب الإسكافي ، ذاهبًا إلى أنَّ الضمير في الآية الأولى عائد إلى رب العالمين ، وفي الآيتين الأخريين عائد إلى موسى ، بدليل أنَّ تقريع فرعون للسحرة وإنكاره مُنصبٌّ في الموضعين الأخيرين على اتِّباعهم لموسى ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ ، بخلاف الموضع الأول ، فقد جاء بعده ما يدلُّ على أنَّ إيمانهم برب العالمين هو وسيلتهم للاستيلاء على المدينة وأهلها ، فكان أحرى بإنكار هذا الإيمان بربهم ، وهذا نص ما قاله: «والجواب عن السؤال الثاني وهو قوله ﴿ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾في سورة الأعراف ، و﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ في السورتين الأخريين ، هو أنَّ الهاء في ﴿ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾غير الهاء في ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ ، وكل واحدة تعود إلى غير ما تعود إليه الأخرى ، فالتي في ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ لرب العالمين؛ لأنَّه تعالى حكى عنهم ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، وهو الذي دعا إليه موسى – عليه السلام – وأمَّا الهاء في ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ فلموسى – عليه السلام – والدليل على ذلك أنَّها جاءت في السورتين وبعدها في كل واحدة منهما ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ

ٱلسِّحْرَ﴾، فالهاء في (إنَّه) هي التي في ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥٓ﴾ ، ولا خلاف أنَّ هذه لموسى – عليه السلام – والذي جاء بعد قوله ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ قوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ ، أي: إظهاركم ما أظهرتم من الإيمان برب العالمين ، وقع على تواطؤ منكم أخفيتموه ، لتستولوا على العباد والبلاد» (١).

وذهب الغرناطي إلى أنَّ الباء واللام لهما مع الفعل دلالتان مختلفتان ، وأنَّ الغرض محتاج لهما معا ، فجيء بهما في مواضع مختلفة لإحراز المعنيين ، وبدأ بالباء لأنَّها أخص في المقصود. قال: «إن الباء في قوله ﴿ءَامَنتُمْ﴾ واللام في ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ محتاج إلى كل واحدة منهما ، من حيث إنَّ التصديق والانقياد معنيان محتاج إليهما ، والباء تحرز التصديق ، واللام تحرز الانقياد والإذعان ، فبدأ بالباء المعطية معنى التصديق ، وهي أخص بالمقصود من اللام ، فاقتضى الترتيب تقديمها ، ثم أعقب في السورتين بعد اللام ، حتى كأنَّه قد قيل لهم: أصدَّقتموه منقادين له في دعائه إياكم إلى الإيمان بما جاء به من عند الله ، فحصل المقصود على أكمل ما يمكن» (٢).

وكلام الإسكافي أدقُّ وأوجْه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (الحجر: ٨٥) ، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (الدخان: ٣٨-٣٩) ، رأى البعض أنَّ الباء فيهما

---

(١) درة التنزيل ١٧٦ – ١٧٧.
(٢) ملاك التأويل ١/ ٤٤٥ – ٤٤٦.

بمعنى اللام [1].

وجمهور المفسرين على إبقاء اللام دالة علي أصل معناها ، وهو الأليق ببلاغة الذكر الحكيم؛ لأنَّ خلقهما متلبِّسين بالحق مصاحبين له ، في ضمنه أنْ يكون الحق غاية خلقهما ، وما خُلق ممزوجًا بالحق متلبِّسًا به لا يكون غير الحق غاية له وهدفًا ، وهو ما يتضح من قول أبي حيان: «﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ ، أي خلقًا ملتبسًا بالحق ، لم يخلق شيء من ذلك عبثًا ولا هملاً» [2].

(١) انظر تأويل مشكل القرآن ٥٧٨، وحروف المعاني للزجاجي ٨٧.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٦٥.